

من المصطلحات الصوتية

بين الفلاسفة المسلمين والعرب المحدثين

د. أمينة طيبي

أستاذة محاضرة/ قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة سيدي بلعباس

اهتم علماء اللغة بمجال الأصوات اهتماما لا نظير له الأمر الذي أوصلهم إلى تلك النتائج المبهرة التي تستوقف كل قارئ و باحث عربي أراد الولوج في هذا المجال وقد تنوع اهتمام القدامى بمجال الصوتيات على تنوع توجهاتهم لذلك فإنك تتقف على الكثير من القضايا الصوتية الهامة و المميزة في كتب النحو و القراءات، وكتب الفلاسفة، بل حتى الأطباء والجغرافيين في بعض الأحيان(1).

فتجدهم تناولوا الحديث عن جهاز التصويت لدى الإنسان و مخارج الأصوات وصفاتها، مفصلين بين الدراسة الصوتية و الأخرى التركيبية في كثير من الأحيان، و هم في دراساتهم التركيبية للصوت العربي تجاوزوا المنطوق العربي إلى غيره من التآديات الأخرى، واضعين مجموعة من المصطلحات تنم عن حدة في الذكاء و الملاحظة العميقة للظاهرة الصوتية بكل عمقها، عدا تلك الهنات التي قليلا ما نجدهم وقد تعثروا أمامها، لكننا إذا تتبعناها نجد مردها دقة تلك الظواهر أو استنادها على أمور لم تتوفر لديهم كالألات أو علم لتشريح الذي كان غائبا عنهم.

إن المصطلحات التي أوجدها العرب القدامى لأنفسهم لم تأت من فراغ، بل إن المتتبع لها يقف على دقتها وأصالتها التي تجسد روح الدقة ورهفة الحس لديهم رغم أن هذا العلم لم يكن مستقلا فلو توفر لدى القدامى ما توفر للمحدثين لكانت هذه الأمور المحدثّة سابقة عن أوانها، بل إن ما توصل إليه المحدثون كان نتيجة حتمية للتطور التكنولوجي ليس إلا.

إن الاصطلاح هو إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما و قيل: "الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى" و قيل: "و الاصطلاح إخراج الشيء من معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد" و قيل: "الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين" (2) و على هذا النحو نجد أغلب الدارسين القدمى و قد ساروا على هذا المنحى لاقتباس مصطلحاتهم فقالوا الأصوات المستعلية (3)، لأنهم لاحظوا استعلاء اللسان مع هذه المجموعة، إذ أخذوا الكلمة بمفهومها اللغوي و ساغوا منها المصطلح الصوتي "بهذه العفوية تأسس المصطلح التراثي و اشتهر و ذاع و تنوع بتنوع العلوم النظرية و العملية و نما بنمو الحضارت و الاختراعات فكلما جد جديد إلا و اصطلاح على لقب له كمصطلح خاص به، لا يتناول غيره" (4).

هذا ما حدث للمصطلح العربي عند نشأته إذ "لم يكن لعرب أصول يراجعونه ولا كتب يقرؤونها فلم جاء الإسلام ازدهرت الحضارة وتنوعت المعارف وامتزج العرب بالحضارات السابقة فاحتاجوا إلى مصطلحات تعصم معارفهم من التداخل" (4) فراح علماء العربية يجدون في وضع المصطلحات منهم من أوجد مصطلحات عربية وليدة البيئة العربية ومنهم من راح يعرب بعضها الوافد من الحضارات المجاورة وهناك من راح يعتمد "مصطلحات وافدة على الفطرة العربية و مقتبسة من الفلسفة والمنطق الإغريقين ورواد هذا المذهب هم الفلاسفة المسلمون و هي مصطلحات جاهزة من عهد ازدهار الفلسفة اليونانية" (5).

إذا كان الفلاسفة ساقوا مصطلحاتهم من الفكر اليوناني والإغريقي فإن فكرهم ظل عربيا صرفا صافيا وعندما نعالج الجانب الصوتي في دراستهم نلغى مصطلحات أخرى لا علاقة لها بالفكر لبيوناني بل إن تلك المصطلحات في عمقها و دقتها تجاوزت ما توصل إليه النحاة و اللغويون ممن عاصروهم و إن أكثر تلك المصطلحات كانت ولا تزال محل تقدير وإعجاب من قبل المحدثين و إذ نحت الرحال عند هذه الفئة من الدارسين العرب، سنقف فقط على تلك المصطلحات الصوتية التي خالفوا فيها اللغويين ومسوا بها ظهور صوتية لم يتفطن إليها غيرهم لذلك نفاها المحدثون عنهم.

فقد اختلف تناول ابن سينا للأصوات اللغوية عن سائقيه و لاحقيه من علماء العربية، لاسيما النحاة و اللغويين من خلال دراسته الطبيعية التي استند عليها في إبراز مخارج الأصوات ووصف العملية العضوية مع كل حرف وصفا مفصلا؛ إذ نجد أنه الوحيد دونهم الذي يقسم الأصوات إلى صوامت و مصوتات، حيث راح النحاة يقسمونها إلى حروف وحركات، أما المحدثين فيطلقون عليها الصراح و العلل و هو مذهب تمام حسان في كتابه مناهج البحث في اللغة، و يقسمها محمود السعران في "علم اللغة مقدمة للقارئ العربي" إلى سواكن و حركات، أما إبراهيم أنيس فيذهب إلى تسميتها بالسواكن و أصوات اللين، في "كتابه الأصوات الغوية"، ألا ترى هذا الاختلاف بين المحدثين في اصطلاحاتهم لأقسام الأصوات، إذ راح كل واحد يدافع عن مصطلحه الذي اختاره لنفسه و مع ذلك أجمعوا على تخطئة النحاة القدامى فيما ذهبوا إليه بحكم عدم وضوح الفكرة لديهم، فهم لم يهتموا بالحركات بمثل اهتمامهم بالصوامت ثم إن مصطلح الحرف لم يكن مستقرا لديهم، فمرة هو الحرف و أخرى اللفظ، وتارة هو الصوت، لكن بالمقارنة نجد أن ابن سينا قد وافق المحدثين فيما ذهبوا إليه، و أنه اهتم اهتماما بالصوامت كذا بالحركات التي اصطلح عليها بالمصوتات و هو المصطلح الذي يستخدمه كثيرا لدارسون المحدثون.

ابن سينا كان ذكيا في تعامله مع أقسام الأصوات فقد رتبها ترتيبا محكما، حيث بدأ بالصوامت، ثم أشباه المصوتات و أخيرا المصوتات و هو عند تناوله للصفات الصوتية، سار بالدقة نفسها إذ أنه خالف المصطلحات النحوية، و اختار لنفسه المصطلحات التي رآها مناسبة و رؤيته العلمية، كما شارك النحاة في بعضها الآخر و بين تلك المصطلحات التي انفرد بها:

الحدة و الثقل:

حيث جعل ابن سينا حدة الصوت وثقله متعلقة بطبيعة لجسم المقروع فعند اتصال أجزائه وتماسكها يحدث الصوت الحاد، على عكس الصوت الثقيل الذي يحدث بدوره عند انفصال أجزائه و تفرقها: "و أما حال المتموج في نفسه فإنه من اتصال أجزائه و ملاسته وبسطته و شدته تكون الحدة و الثقل" (6).

إن في كلام ابن سينا إشارة واضحة لما نعرفه اليوم عن درجة الصوت، ففي حالة تماسك أجزاء الموجة يكون الصوت الحاد، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل تكون متباعدة و هو الأمر الذي يستسيغه أكثر الدارسين العرب (7) وهناك من يرى أن ابن سينا يركز على طبيعة الجسم المقروع فإذا كانت أجزاؤه متماسكة مثل الأجسام الصلبة من معادنو نحوها يكون الصوت الحاد و إذا كانت أجزاؤه منفصلة مثل الخشب يكون الصوت ثقيلا (7).

وبالتالي فإن ابن سينا سواء كان قد ركز على شكل الموجة أو على طبيعة الجسم المقروع، فإنه لم يقصد بمصطلحيه الشدة أو لرخاوة، بل إن هذا النوع من الاهتمام لانهجده عند غيره من أقرانه و من سبقوه.

المفردة و المركبة:

مانلمسه بوضوح عند ابن سينا هو استخدامه لكلمة الحبس بنوعيه التام و غير التام وذلك للوقوف على الحروف المفردة و المركبة و هو ما عرف عند غيره بالشديدة والرخوة و عند المحدثين بالانفجارية والانحباسية والوقفية والانسدادية والآنية والاحتكاكية.

أ/ المفردة:

و يقصد بها تلك الأصوات التي تحدث في الزمان الفاصل بين الحبس و الإطلاق، كما أن هذا الأخير يكون عند النطق بها دفعة واحدة، يقول ابن سينا في هذا المعنى: "والحروف بعضها في الحقيقة مفردة و حدوثها عن حبسات تامة للصوت أو الهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة" (8) و هو عندما يصنفها تدرك أنه يتحدث عن الشديدة، الباء و التاء و الجيم و الدال و الضاد أيضا من وجه و الطاء و القاف و الكاف و اللام و الميم و النون أيضا من وجه (9)، ألا ترى أنه مع بعضها يضيف كلمة من وجه مميذا بينها و بين الأصوات التي لا ينحبس معها الهواء حبسا تاما، بمعنى ن له متسريا آخر ينفذ من خلاله الهواء و هو ما اصطلح عليها بالاحتكاكية.

ب/ المركبة:

وهي التي يمتد الصوت بين الحبس و الإطلاق و تتبع بعدة إطلاقات: "و لك أن تعدها عدا" (9). هناك من يفرق بين الأصوات الانفجارية (المفردة) و الاحتكاكية (المركبة)، فيرى أن الأولى هي أصوات حسمة سريعة لا تحتاج إلى جهد عضوي، على حين أن الثانية يستدعي لنطقه زما

أطول وجهدا أكبر، فاللسان أثناء النطق يكون دائم الحركة لا يكاد ينقطع عنه، يلتقي مع الحنك التقاء محكما في حالة الصوت الشديد ولكن مع الرخو يتوقف لدى مسافة قصيرة جدا من لحنك هي التي تسمح بتسرب الهواء فالصوت الشديد أيسر من نظيره الرخو .

ألا ترى كيف وفق ابن سينا في هذين المصطلحين وإذا كان ما ذهب إليه صحيح فلماذا لا نلتزم نحن العرب بمصطلحاته لأنها صليّة ويذهب كل باحث عربي في استعمال المصطلح الذي يراه الأقرب عند ترجمته للمصطلح الأجنبي.

كما أجمع معظم الدارسين المحدثين على أن القدامى أغفلوا الدراسة فوق التركيبية، لكن ومع ذلك فإن غياب دراسة مقصودة من هذا النوع في تراثنا اللغوي لا يعني مطلقا إغفال أو عدم اهتمام المتقدمين من النحاة واللغويين إلى هذه الظاهرة، بل لقد وصلنا عنهم إشارات مهمة يمكن عدها إرصادات أولى في هذا الجانب، منها ما يتعلق بالدراسة المقطعية ومنها ما يسلك ضمن دراسة النبر والتنغيم (10).

فما المقطع؟ وهل عرف القدامى هذا المصطلح؟

يجمع أغلب علماء الأصوات على أن الدراسة الصوتية للأصوات مفردة من حيث المخارج والصفات غير كافية باعتبارها تخضع لقواعد معينة في تجاورها وارتباطاتها ومواقعها (11)، وعليه فدراسة التشكيل الصوتي تقتضي دراسة الظواهر التي لا ترتبط بالأصوات في ذاتها بل بالمجموعة الكلامية بصفة عامة كالوقعية والنبر والتنغيم أي دراسة سلوكها داخل التركيب.

ولغة اتظمتها المتعددة، منها النظام الأصواتي الذي يخضع لتوزيع منسجم، حيث لا يتعارض فيه صوت مع آخر والنظام التشكلي الذي لا يتعارض فيه موقع مع غيرمو كذا النظام المقطعي والنبري والتنغيمي، فهي منظمة من النظم، يؤدي كل منها وظيفة بالتعاون مع باقي النظم.

لم يتفق علماء الأصوات على تعريف واحد للمقطع، ومرد ذلك اختلاف الرؤى حول الوظيفة الأكوستيكية الفيزيائية أو الوظيفية أو النطقية للمقطع، ومع ذلك هم يتفقون على أهميته في الدراسة الصوتية باعتبار كلام الإنسان عبارة عن مقاطع صوتية، فالمقطع "يشكل درجة في السلم الهرمي للوحدات الصوتية التي يتشكل كل منهما من أصغر وحدة تسبقه، الوحدة الصغرى الفونيم ثم يأتي المقطع، المكون من فونيمات بترتيب معين، ثم تأتي مجموعة النغم (قطار المقاطع) المحتوية على النبر وعلى تتابعات من مجموعات النغم" (12)

فالمقطع، هو مجال العمل الذي تشغل عليه باقي الظواهر التشكيلية من نبر وتنغيم، وهو الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها" (13).

مثل هذه الدراسة لم تكن بعيدة عن العلماء الأوائل بل إن المبحر في تراثنا اللغوي ليقف على بعض الأمور التي يذهل أمامها باحث زاحمته كل أنواع الآلات، في حين لم يتوفر لديهم إلا حس مرهف وذكاء حاد وقدرة هائلة على التدقيق.

فقد عرف تراشنا الصوتي، كما هو في تناول النحاة و اللغويين، مصطلح مقطع، و لكن بمعنى المخرج، لا بمعنى syllabe، يقول ابن جني: "الصوت عرض يخرج مع النفس مستطبلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن المتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"(14) و يعود الضمير إلى الصوت و العرض راجع إلى المقطع و من هنا نفهم أن ابن جني يسمي المقطع هنا حرفا و المعروف أن المقطع هو مخرج الحرف لا الحرف(15).

أما إذا عدنا إلى ما خلفه الفلاسفة و علماء الكلام في قسمه المتعلق بالدراسة الصوتية وقفنا على معالجة جادة للمقاطع العربية تدنو كثيرا من تلك التي نلمسها اليوم في البحث الصوتي الحديث، فقد عرضوا للمقطع بمعناه العلمي المعهود في الدرس الحديث(10)، كما أدركو المقاطع الرئيسية في العربية و عملوا على ما يقابلها بما يناظرها في الدرس العروضي عند قدامى النحاة و اللغويين.

يطل علينا الفارابي من بين الفلاسفة الذين كان لهم باع هام في مجال الدراسات الصوتية، ضمنها في كتابه الضخم الذي ألفه فتناول فيه الصوت اللغوي الانساني الدال، و المقطع الصوتي بما يظهر قدرته على الإفادة من فكرة المقطع في دراسة أوزان الشعر و حسن تصرفه بالمصطلح و إطلاقه تسمية المقطع القصير على ما يقابل الصامت المتبوع بمصوت قصير و المقطع الطويل على ما يقابل الصامت المتبوع بمصوت طويل، و استعمال كلمة حرف بما يقابل مصطلح الصوتية (الفونيم) و غير ذلك من مسائل الدرس الصوتي الحديث المهمة(16).

فالصوت قبل أن يصير حرفا لا شأن له باللغة الانسانية المكونة من الألفاظ الدالة و هذا يضع أيدينا على براعم البدايات الأولى لما سمي في زماننا بتظرية الفونيم، و الصوتيات التي هي مادة المقاطع، أو ما عبر عنه بالحروف، قسمان: حروف مصوتة و حروف غير مصوتة، ولتا ثالثا و الحروف المصوتة قسمان: حروف مصوتة قصيرة، أو فونيمات مصوتة قصيرة، و حروف مصوتة طويلة، و إطلاق مصطلح الحرف على المصوتات القصيرة دليل آخر على أن عبارة الفارابي تدل على تبصره بفكرة الفونيم: "و الحروف منها مصوت و منها غير مصوت و المصوتات منها قصير و منها طويلة و المصوتات القصيرة هي التي تسميها العرب الحركات"(17).

فما تسميه العرب حركات هو في الحقيقة حروف مصوتة قصيرة شأنها شأن سائر المصوتات الطويلة في الحرفية (الصوتية) و المصوتات كلها قسيمة غير المصوتات في الحرفية الصوتية. فغير المصوتة بأنواعها المختلفة، و المصوتة القصيرة و الطويلة بأنواعها المختلفة، هي حروف اللغة، بالمعنى الفونيمي الذي أرادته من لفظة الحرف.

قال: "و من فصول الأصوات الفصول التي بها تصير الأصوات حروفا و الحرف منها مصوت و منها غير مصوت. و المصوتات منها قصيرة و منها طويلة، و المصوتات القصيرة هي التي تسميها العرب حركات"(18).

والحروف غير المصوتة منها ما يمتد بامتداد النغم ومنها ما لا يمتد بامتدادها والممتدة مع النغم هي مثل اللام والميم والنون والهمزة والعين والزاي، وما أشبه ذلك غير الممتدة مثل التاء والذال والكاف وما جانس ذلك¹⁸.

والحروف الممتدة بامتداد النغم منها ما يُشعّ مسموع النغم إذا اقترنت بها مثل العين والحاء والطاء، فاللام من بينها تمتد وإن لم يسلك الهواء في مقعر الأنف، والميم والنون لا يمتدان إلا أن يسلك الهواء في الأنف.

والمصوتات الطويلة منها أطراف ومنها ممتزجة عن الأطراف والأطراف ثلاثة: إما الطرف العالي وهو الألف وإما الطرف المنخفض وهو الياء، وإما المتوسط وهو الواو. والممزوجة إما ممزوجة من الألف والياء، وإما من ياء وواو، وإما من ألف وواو وكل واحد من هذه الممتزجة إما مائلة إلى أحد الطرفين أو متوسطة غير مائلة، والمائلة إما إلى هذا وإما إلى ذاك. وكانت المصوتات الممتزجة بالجملة ثلاثة، وأصناف كل واحدة منها ثلاثة، صارت جملتها تسعة. وقديمكم أن تنقسم كل واحد من هذه غير أن مسموعات أقسامها تتقارب تقارباً لا يميز السمع بينفصولها، ولذلك ينبغي أن يقتصر منها على هذه التسعة ويجمع إليها الأطراف الثلاثة فتصير أصناف المصوتات الطويلة المنفصلة بفصول بينة في السمع اثني عشر مصوتاً⁽¹⁸⁾.

ويجمع إلى هذه من غير المصوتات الممتدة تلك الثلاثة التي لا يشع مسموع النغم، فتكون جميع الحروف التي تساوق النغم وتقترب بها ولا تنفك منها نغمة إنسانية وتستعمل استعمالاً سلساً وتبين بياناً غير مستكره ويحس حساً غير مستبشع خمسة عشر حرفاً.

وأما المصوتات القصيرة فإنها لا تمتد مع النغم ما دامت على قصرها، فإذا ساوقت النغمة امتدت حتى لا يفرق بينها وبين الطويلة⁽¹⁸⁾.

أما المقطع عنده فهو حصيلة اقتران حرف غير مصوت (صامت) بحرف مصوت (صائت)، يقول: "المقطع مجموع حرف مصوت وحرف غير مصوت"⁽¹⁹⁾ وهما نوعان فصل فيهما أيما تفصيل، المقطع القصير والطويل يقول: "وكل حرف غير مصوت أتبع بمصوت قصير قرن به فإنه يسمى المقطع القصير والعرب يسمونه الحرف المتحرك، من قبل أنهم يسمون المصوتات القصيرة حركات.

وكل حرف لم يتبع بمصوت أصلاً وهو يمكن أن يقترب به فإنهم يسمونه الحرف الساكن، وكل حرف غير مصوت قرن به مصوت طويل فإننا نسميه المقطع الطويل"⁽¹⁸⁾.

ثم يربط المقطع الطويل بالسبب الخفيف فيقول: "وكل مقطع طويل فإن قوته قوة السبب الخفيف، ولذلك يعد في الأسباب الخفيفة كل ما لحق لأسباب الخفيفة لحق المقاطع الطويلة، وسائر ما يركب تركيباً أزيد مما عدناها فإن جميعها مركبة إما عن أسباب وإما عن أوتاد وإما عنهما جميعاً وكل سبب خفيف فإنه يقوم مقام نفرة تامة تعقبهما وقفة كذلك كل مقطع طويل"⁽¹⁸⁾.

الأمر الذي يجعلنا ندرك أن الفارابي أدرك العلاقة بين المقاطع والأسباب بما يدعو إلى القول أن الدراسات العروضية في روحها هي عبارة عن دراسة للمقاطع في اللغة العربية ثم يتابع هذا الربط مقارنا ما توصل إليه بنتائج الدراسات العروضية آنذاك قائلا: "وكل حرف متحرك أتبع بحرف بحرف ساكن فإن العرب يسمونه السبب الخفيف وكل حرف متحرك أتبع بحرف متحرك فإنهم يسمونه السبب الثقيل والسبب الثقيل متى أتبع بحرف متحرك سمي الوتد المجوع، والاجتماع المتحركين فيه، والسبب الخفيف متى أتبع بحرف متحرك سمي الوتد المفروق لافتراق المتحركين فيه بالساكن المتوسط، والسبب الخفيف متى أتبع بمتحرك فلنسمه نحن السبب المتوالي لتوالي المتحركات الثلاثة فيه(18).

ولعلنا نلاحظ من خلال ما تقدم حقيقة أخرى سابقة لأوانها وهي إدراك الفارابي للفرق بين الصامت والذي عبر عنه بغير المصوتة، والصائت معبرا عنها بالمصوتة، وأهمية هذه الأخيرة في التشكيل المقطعي كما نجده استعمل كلمة - حرف - لدلالة على مصطلح صوتية أو فونيم في الدرس الحديث باعتبارها مادة المقاطع ويمكن لكلامه أن يعد بدايات حسنة لما سمي الآن بنظرية الفونيم(20).

فالتصويت له شأن بامتداد النغم في الموسيقى ومن أجل ذلك نجده يذكر أن الذي يمتد به النغم المصوتات الطويلة، أما المصوتات القصيرة، فلا يمتد بها النغم إلا إذا طال بها الصوت. حينئذ تنتقل إلى مصوتات طويلة" أما المصوتات القصيرة..... وبين الطويلة"، وأنظر قوله.. "امتدت حتى لا يفرق بينها وبين الطويلة" كيف تجاوز باحساس صوتي سليم ما يدعيه أهل اللغة من أن الحركة إذا مد بها الصوت تولد من بعدها حرف من جنسها وهو أمر لو قال به لزعم أن المصوت القصير يمكن أن يتبعه مصوت آخر ولأدنى ذلك إلى القول بإمكان وجود قمتي إسماع في المقطع الواحد وهذا لا يكون(20).

كما أدرك الفارابي أن امتداد الصوتية (الفونيم) بالنغم أمر غير التقسيم المقطعي للألفاظ، فالمصوتات القصيرة تشكل مع غير المصوتات التي تسبقها مقاطع قصيرة، وهي مع ذلك لا يمتد بها النغم، أما غير المصوتات الثلاثة التي تمتد مع النغم فإنه لم يتكلم عليها في القسمة المقطعية سواء أكانت ممتدة أم غير ممتدة وهو أمر صحيح، لأن غير المصوت مما يوقف عليه يشكل القاعدة التالية لقمة المقطع المصوتة ولا شأن لامتداد الصوت به أو عدم امتداده في التقسيم المقطعي وفي كلامه على المصوتات في التشكيل المقطعي أمران ينبغي الوقوف عندهما: الأول كلامه على أنواع المصوتات الطويلة والثاني: كلامه على مد الصوت بالمصوتات القصيرة وما ينجم عنه(21).

أنواع المصوتات الطويلة:

درس الفارابي المصوتات الطويلة دراسة تطبيقية وصفية ومنطقية رياضية في الوقت نفسه وجعل كلامه عليها يعم ما يعرفه من لغات ولم يجعله خاصا بالعربية، فكان الجمع الحاصر لها لا تكاد لغة إنسانية تخرج عنه ذلك أن "المصوتات الطويلة منها أطراف... خمسة عشر حرفا"(18)

لكن المراد من كلامه عن المصوتات الممزوجة" لا يمت بصلة إلى الكلام على ما نسميه اليوم المزدوج diphthong، لأن هذا إما أن يكون من مصوت قصير متبوع بنصف مصوت semi-vowel، له قيمة صامتة في المقطع إذ يشكل القاعدة الثانية للمقطع حيث يشكل المصوت القصير القمة وذلك في المزدوج الهابط نحو سوف، وليس. وإما أن يكون من نصف مصوت، يشكل قاعدة المقطع السابقة لمصوت، متبوع بمصوت قصير هو قمة المقطع وذلك في المزدوج الصاعد نحو وجد، ويجد، فالمزدوج بنوعيه مركب من صويتين (فونيمين)، وكلام الفارابي كان عن المزيج لا التركيب، هذا من ناحية من ناحية ثانية أن النغم إذا كان يمكن أن يمتد بسهولة مع المزدوج الهابط، فإنه لا يمكن أن يمتد مع المزدوج الصاعد لأن المصوتات القصيرة لا تمتد مع النغم ما دامت على قصيرها" (22) والجزء الثاني من المزدوج الصاعد مصوت قصير وكلام الفارابي كان على المصوتات الطويلة الممتدة مع النغم.

كما تكلم الفارابي على الحركة والسكون في الحرف، فاستعمل كلمة الحرف الساكن و الحرف المتحرك، فهو على خلاف اللغويين القدامى ما كان يرى أصوات المد الثلاثة حروفا بمعنى الحرف الذي يمكن أن يتحرك و يسكن، بل هي عنده مصوتات قصيرة، أما من حيث كون كل منها وحدة صوتية صغرى مميزة في اللفظ، فكل منها حرف، وما سمي بالحركات (المصوتات القصيرة) حروف أيضا بهذا المفهوم (23).

فالفونيمات في العربية قسمان:

1. صوائت (مصوتة): / آ قصيرة: كسرة، ضمة، فتحة. ب/ طويلة: " ، ، .
2. صوامت (غير مصوتة): و هي سائر الحروف، مع الواو والياء غير المديتين وهذه جميعا يمكن أن تأتي ساكنة أو متحركة، أي يمكن أن تأتي بعدها مصوت قصير، فتسمى متحركة، وقد لا تتبع بحركة فتسمى ساكنة، مثلا: اكْتُبْ، الكاف ساكنة، والتاء متحركة بضمة فصلت بين التاء والباء.

ففي نحو قال، هل نعتبر القاف حرف ساكن؟ أم هل هو حرف متحرك؟ لوكون الألف حرفا عند اللغويين القدامى وهو ساكن قالوا: أن القاف هنا متحرك وهكذا جاء قولهم بالفتحة قبل الألف مخرجا من التقاء حرفين ساكنين، ولو أن اللغويين القدامى عدوا الألف حركة طويلة للقاف، لكان ذلك المخرج الصوتي الصحيح "فخروج المصوتات من مفهوم الحرف الذي يمكن أن يتحرك ويسكن خطوة مهمة في تحويلها من مفهوم الحروف إلى مفهوم الحركات"، لكننا نجد الفارابي يصرح بهذه الحقيقة على عكس معاصريه، فلفظ الحرف عنده له استعمالان:

الأول: ما يقابل مفهومنا للفونيم" و الحروف منها مصوت...ومنها ما لا يمتد"وقوله" فمتى اتفق في الألحان الفارغة فبدى بحروف غير مصوتة أردفت بمصوتات طويلة...ويطول المصوت القصير" فهو هنا يرادف بين المصطلحين، وكان الحرف القصير هو نفسه الصوت القصير".

الثاني" ما يقابل غير الموصت، أو الصوامت كما نعرفها اليوم، الذي يمكن أن يليه مصوت قصير أو طويل (24).

فالحرف عند الفارابي إذن إما مصوت أي صائت وتدخل تحته المصوتات القصيرة فالطويلة، وإما غير مصوتة أي صامتة تقترب بمصوت قصير أو طويل، وفي قوله "كل حرف لم يتبع بمصوت أصلاً وهو يمكن أن يقترب به فأنهم يسمونه الحرف الساكن"، فالألف على هذا ليس حرفاً ساكناً لأنه لم يتبع بمصوت أصلاً ولا يمكن أن يقترب به (25). فالفارابي إذن جعل الحرف ينحصر في ثلاث صور، إما مقترباً بمصوت قصير مثلاً كـ، فالكاف حرف، والفتحة مصوت قصير وإما مقترباً بمصوت طويل، مثل كـ، فالكاف هنا أيضاً حرف أتبع بمصوت طويل (٢٦)، وإما ألا يقرب بمصوت وهو يمكن أن يقترب به، مثلاً كـ، فالكاف هنا وردت ساكنة مع أنها يمكن أن تأتي متحركة بضمة أو فتحة أو كسرة.

فالفارابي إذن أحس أنه لا يمكن أن يتوالى مصوتان في المقطع الصوتي، بل لا يمكن أن يتوالى مصوتان في السلسلة الكلامية باطلاق لأن المصوتات القصيرة والطويلة تمثل القمم في السلسلة الكلامية، وغير المصوتات تمثل القواعد ولا يمكن أن تتجاور قمتان دون أن يفصل بينهما صامت، فكل قمة في مقطع يلزم أن تكون صوتاً واحداً (26).

فالمقطع الطويل عند الفارابي يتألف من حرف غير مصوت أي صامت ومصوت طويل دون أن يفصل بينهما مصوت قصير من جنس المصوت الطويل فنجدته يقول: "وأما المصوتات القصيرة فإنها لا تمتد مع النغم ما دامت على قصرها فإذا ساوقت النغمة امتدت حتى لا يفرق بينها وبين الطويلة"، فهو يشير إلى قضية هامة أغفلها القدامى، حول الحركات وفي كلامه دليل على أن المصوتات الطويلة إشباع للقصيرة فقط لا أنها نشأت من مد القصيرة "الحروف المتحركة إذا مدت حركاتها أدنى مد كانت قريبة من سبب خفيف" (27)، ونجد هذه المقاربة إلى السبب الخفيف في قوله "وكل مقطع طويل فإن قوته قوة سبب خفيف، فهذا المد الداخل على المصوت القصير الذي كان يشكل قمة المقطع القصير يؤدي إلى جعله مصوتاً طويلاً يمثل قمة المقطع الطويل (28).

فالفارابي يسبق الدرس الصوتي الحدث كثيراً في نفيه لوجود مصوت قصير قبل المصوت الطويل، والصوامت (الحروف) عنده، إما "أن تردف بمصوتات قصيرة، وإما أن تكون ساكنة وإما أن تردف بمصوتات طويلة" (29).

فالفارابي على هذا أول من استعمل المقطع بمفهومه الاصطلاحي وإن كان يستعمله في بعض الأحيان بالمعنى اللغوي (30) في قوله: "والألحان المسموعة من الآلات منها ما صيغت ليحاكي بها ما يمكن محاكاته من الألحان الكاملة، أو لتجعل تكثيرات لها وافتتاحات ومقاطع واستراحات إليها في خلال المحاكاة" (31)، فالمقاطع في هذا النص جمع مقطع ولا يراد به المعنى الاصطلاحي له، لأن الكلام ليس بسبيله، بل الكلام على مواضع التصرف بالألحان المسموعة والبدائيات ومواضع القطع والوقف

للاستراحة، فالمقطع هنا إذن يراد به موضع القطع أو الوقف (30) هذا الاستعمال المشترك للكلمة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي يشير إلى أن المصطلح ما زال غضا طريا (30).

إذن يذكر الفارابي نوعين من المقاطع في العربية متجاوزا الأنواع الأخرى، فسمى الأول مقطعا قصيرا، والآخر طويلا، إلا أنه تحدث عن الطويل المفتوح فقط، أي الحرف المتبوع بمصوت طريل، كما ربط بينه وبين السبب الخفيف، كونهما يشكلان نغمة واحدة " وكل مقطع طويل فإن قوته قوة السبب الخفيف"، وكل حرف متحرك اتبع بحرف متحرك فإنهم يسمونه السبب الثقيل، وقوله " والسبب الثقيل متى اتبع بحرف ساكن سموه الوتد المجموع لاجتماع المتحركين فيه، وقوله: " والسبب الخفيف متى اتبع بحرف متحرك سموه الوتد المفروق لافتراق المتحركين فيه بالساكن المتوسط " و: وهذا السبب ربما الذي حال دون اهتمامه ببقية المقاطع الأخرى، لأنه انحرف إلى الدراسة العرضية، ولولا ذلك لكان قد سبق معاصريه بأجيال (32).

قدم الفارابي للدرس الصوتي العربي خدمة لا نظير لها عندما ترجم كتاب أرسطو طاليس، تتعلق بالمقطع الصوتي، فكانت دراسته ردا على كل من أنكر جهود الأوائل فيما يتعلق بالدراسات فوق المقطعية، مع أن العمل كان في البداية عبارة عن ترجمة إلا أنه إضاف إليه الكثير من الأمور التي تؤكد أنه كان في كل مرة يقرن ما توصل إليه الفارابي في لغته اليونانية، بما لمسه في اللغة العربية، فالمقاطع مثلا لا معنى لها وهي مفردة في اللغة اليونانية، إلا أن الفارابي لاحظ في العربية بعض المقاطع التي تبقى دالة على معنى وإن كان يختلف عن المعنى الذي تعطيه وهي متوالية كقوله: " أما المقطع الواحد من مقاطع الاسم فليس بidal لكنه حينئذ صوت فقط يريد بالمقطع : مجموع حرف مصوت وحرف غير مصوت، فإنه متى أخذ شيء منه جزءا لاسم مفرد لم يكن دالا على جزء المعنى الذي يل الاسم على جملة لكنه يكون حينئذ كحرف واحد فلذلك جعله صوتا فقط وينبغي أن يؤخذ هذا على أنه جزء بالإضافة إلى اسم ما مشار إليه، فإن كثيرا من أجزاء الاسم ربما كان اسما مفردا لم يقصد به حيث أخذ جزءا للاسم المفرد أن يكون جزءا له، على أنه قد كان اسما دالا، مثل قولنا: أبكم، في العربية، فإن قولنا : أب، وقولنا : كم، كل واحد منهما دال على انفراده، لا من حيث هو جزء للاسم ولكن يقال في أمثال هذه إن أجزاءها دالة بالعرض " (33).

ومع أن المقام لا يحتمل أكثر من هذا، إلا أن إطلالة على التراث الفلسفي تؤكد أن الفلاسفة عرفوا المقطع بمعناه الاصطلاحي الذي يعرفه به الدرس الصوتي الحديث كما اهتدى رواده إلى جل المقاطع الأساسية التي يقوم عليها النسيج المقطعي في اللغة العربية.

لعل هذه الجولة السريعة في الموروث الصوتي عند الفلاسفة، تدعم حجتنا إذا ما قلنا أن العرب القدامى ضبطوا مصطلحاتهم ضبطا دقيقا عاجوا من خلاله بعض المظاهر الصوتية معالجة علمية محضة، بدليل تأييد الدراسات الصوتية الحديثة لها، لذلك من الأجدر لو التزمنا بتلك المصطلحات مادامت صحيحة: إنها على الأقل ستحول دون هذه الفوضى المصطلحية التي يعيشها

عالمنا العربي، ومع ما أوجده المحدثون من مصطلحات فإن ذلك لا ينفي مطلقاً، أن ما لدى لقدامى كان خاطئاً، لكن لكل عصر خصوصيته، بل إن هذه الوجهة الجديدة لم تأت من عبث، إنما عن طريق تطور العلم الخاص، لذلك لا بد من مصطلحات ومفاهيم خاصة، تواكب التطور التكنولوجي، والتفصيلات التي فرزها في هذا المجال.

قائمة المراجع:

- 1 ♦ ينظر "فصول في فقه العربية"، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1408-1987، ص74
- 2 ♦ "كتاب التعريفات" الجرجاني، الدار التونسية للنشر، دط، دت، ص16.
- 3 ♦ عند سيوييه مثلاً في الكتاب 3/434، سر صناعة الإعراب، لابن جني 11/1.
- 4 ♦ "وقائع لغوية و أنظار نحوية" د/ سالم علوي، دار هومه، الجزائر، دط، دت، ص121.
- 5 ♦ نفسه 13.
- ♦ مثلاً حسم الدين النعيمي في كتابه "أبحاث في أصوات اللغة العربية".
- 6 ♦ "أسباب حدوث الحروف" ابن سينا أبو علي الحسين، تح: محمد حسان الطيان و يحي مير علم، تقديم و مراجعة شأكر الضحامو أحمد رتب النفاخ مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق سوريا، ط1، 1983، ص105.
- 7 ♦ الأصوات الغوية" إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط7، 1980، ص141
- 8 ♦ أسباب حدوث الحروف 60.
- 9 ♦ نفسه 60- 61.
- 10 ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة و اللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري" رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في اللغة، إعداد الأستاذ المهدي بوروية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ص271.
- 11 ♦ "مناهج البحث في اللغة" تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دطدت، ص139.
- 12 ♦ "دراسة الصوت اللغوي" أحمد مختار عمر، توزيع عالم الكتب، ط3، 1405 هـ - 1985 م، ص282.
- 13 ♦ "محاضرات في الألسنية العامة"، فرديناند دوسوسير، ترجمة يوف غازي، و مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، جونية، لبنان، دت، دط، ص27.
- 14 ♦ سر صناعة الإعراب" ابن جني، أبو الفتح، تح: حسن هندواوي، ط1، دار القلا، دمشق، سوريا، 1985، 9/1.
- 15 ♦ "مناهج البحث في اللغة"، تمام حسان، ص219.
- 16 ♦ "أبحاث في أصوات العربية"، حسام سعيد النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة "أفاق عربية" بغداد، العراق، ط1، 1998، ص86.
- 17 ♦ "كتاب الموسيقى الكبير" أبو نصر الفارابي، تحقيق و شرح غطس عبد الملك خشبة، و مراجعة د/ محمود أحمد الحنفي، دار الكاتب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، ص1072.

- 18 ❖ نفسه 1072 - 1079.
- 19 ❖ "شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة" الفارابي
- 20 ❖ أبحاث في أصوات العربية 91.
- 21 ❖ نفسه 94.
- 22 ❖ نفسه 97.
- 23 ❖ نفسه 98.
- 24 ❖ نفسه 100.
- 25 ❖ نفسه 101.
- 26 ❖ دراسة الصوت اللغوي 247.
- 27 ❖ كتاب الموسيقى الكبير 1085.
- 28 ❖ أبحاث في أصوات اللغة العربية 103 - 104.
- 29 ❖ كتاب الموسيقى الكبير 1097.
- 30 ❖ أبحاث في أصوات اللغة العربية 103 - 104.
- 31 ❖ كتاب الموسيقى الكبير 68 - 69.
- 32 ❖ ينظر كتاب "أبحاث في أصوات اللغة العربية" د/ أحمد حسام الدين النعيمي.
- 33 ❖ شرح كتاب أرسطو طاليس 49.